هشام شرابي..
عام على رحيله

هشام شرابي وفلسطين: الحاضر كابوس، والماضي هو الحقيقة

□ صقر أبو فخر

«لقد نَبَذْتَني يا وطني... لن أرجعَ إليك.. لن أرجع أبدًا.» كانت هذه الكلمات خاتمةَ كتابه المدهش، **الجمر والرماد**، وآخرَ ما قاله قبل أن يغادرَ عمّان إلى الولايات المتحدة الأميركية في سنة ١٩٤٩، بعد أن سَقَطَتْ فلسطين وأُعدم أنطون سعادة في لبنان.

منذ أواخر نيسان (أبريل) ١٩٤٨، حينما أَوْشكتْ يافًا على السقوط وغادَرَها معظمُ أهلها، تفاقَمَ يأسُه كثيرًا. أهلُه صاروا لاجئين، وشعبُه صار بلا وطن، وبات هو بلا مأوى. لم ينقذْه من يأسه إلاّ إيمانُه بأنّ الحركة القومية الاجتماعية ستحرِّر فلسطينَ وتزيل العارَ الذي لحَقَ به. وبقي على هذا الاعتقاد حتى سنة ١٩٤٩، التي حَمَلَتْ إليه أسوأَ كارثةٍ في حياته بعد كارثة سقوط فلسطين: ففي الثامن من يونيو (تموز) ١٩٤٩ أُعدم أنطون سعادة بعد أن فشلت الثورةُ القوميةُ الاجتماعية في لبنان، فأَطْلَق زفرتَه الغاضبة تلك، وهاجر إلى الغرب الأميركي. وفي الولايات المتحدة الأميركية دَشّنَ شوطًا جديدًا في مسيرة حياته الصاخبة التي أَمْضاها في صراع وجدال مع الأفكار والنظريات والحركات السياسية. وحاول أن يتجاوز صدمةَ إعدام سعادة، فَشَرَعَ في رحلةٍ فكريةٍ ونقديةٍ أوصلتْه إلى رحاب جديدة من التفكير، واكتشف في أثنائها كارل ماركس وسيغموند فرويد وهيربرت ماركوز ومفاهيمَ التغيير والثورة وحرية المرأة. وأراد أن يتخطّى نتائجَ النكبة الفلسطينية، فانخرط في جهدٍ علمي وعملي في سبيل فلسطين وحرية شعبها. وفي غضون سنوات قليلة أصبح هشام شرابي أحدَ كبار المثقفين العرب، وانتزع لنفسه مكانةً مرموقةً في العالم العربي على الرغم من وجوده في الغرب.

لكنْ، هل أوفى هشام شرابي بما كان وَعَدَ حينما قال: «لقد نَبَذْتَني يا وطني... لن أرجعَ إليك... لن أرجع أبدًا»؟

الجواب: كلا بالتأكيد. فهشام ليس من هذا الطراز البتّة، ومن المحال أن يتنكّر لوطنه ولشعبه ولأمّته على الإطلاق. إنّه ليس من شاكلة فؤاد عجمي أو كنعان مكيّة، بل مِنْ عيار فايز صايغ وإدوارد سعيد ووليد الخالدي وإبراهيم أبو لغد ونصير عاروري وكلوفيس مقصود وحليم بركات. وكتاباته بالإنكليزية أَسْهمتْ، بجدارة، في فضح السياسات الإسرائيلية والأميركية حيال فلسطين والبلاد العربية؛ وإذا كان لدينا اليومَ مناصرون بالآلاف من الأميركيين، فإنّ هذا الأمرَ ما كان ممكنًا لولا الجهدُ الجبّارُ الذي بذله هؤلاء جميعًا وغيرُهم بالتأكيد.

يقول شرابي: «لم تدفعْني ثقافتي الأنكلو ـ أميركية إلى الخروج على هويتي أو تراثي، ولم أتمثّلْ يومًا بالهوية الأميركية، ولم يُنسِني العيشُ في الولايات المتحدة شعبي ووطني. ما حَدَثَ هو العكسُ تمامًا. لقد دفعتْني تجربةُ الاختلاف في الولايات المتحدة الأميركية إلى تأكيد هويتي، والتمسُّكِ بتراثي، والتمكُّنِ من رؤية مجتمعي العربي في إطارٍ تحليليٍّ جديدٍ ومختلف.»[1]

فلسطين والبدايات الأولى

لم يتناولْ هشام شرابي، في بداياته الأولى، المسألةَ الفلسطينيةَ إلاّ لمامًا. ومنذ أن نَشَرَ مقالتَه الأولى في مجلة **صدى النهضة** في ١٩٤٦/٦/٢٧، إلى آخرِ مقالةٍ له في **الجيل الجديد** في ١٩٥٠/١١/١٤، بل ربما إلى آخرِ محاضرةٍ له في الحزب السوري القومي الاجتماعي في آذار (مارس) ١٩٥٤، كانت عبارة «فلسطين» تَرِدُ عابرةً في بعض مقالاته.[2] والحقيقة أنّ هشام شرابي أَوْضح هذا الأمرَ بجلاءٍ تامّ: فقد كان يعتقد أنّ المسألة الفلسطينية هي جزءٌ أساسي من الصراع المحتدم في

١ ـ جريدة **السفير**، ١٩٩٦/١٠/١١.

٢ ـ أنظر: جان دايه، **سعادة وهشام شرابي** (بيروت: دار نلسن، ٢٠٠٤).

المنطقة، لكنّ الجوهر **الأهمّ** هو نهضةُ الأمة السورية والثورةُ القومية الاجتماعية. وكان واثقًا جداً بأنّ الحركة القومية الاجتماعية ستنتصر، وأنّ فلسطين ستتحرّر. وأكثر من ذلك، كان على يقين بأنّ عودةَ الإسكندرون وكيليكيا وتوحيدَ الأمة آتيان بلا ريْب.(1)

بعد نحو عشرين سنةً وقعتْ كارثةُ الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧، ففَقَدَ آخرَ أملٍ له بالنهضة العربية التي طالما بشّرتْ بها الناصريةُ في أرجاء العالم العربي بأسره. وراح هشام شرابي يتأرجح بين تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة؛ بين تجهُّم التفكير وبشارةِ الكفاح المسلّح الذي كانت حركَةُ «فتح» أطلقتْه في ١٩٦٥/١/١، فحسَمَ تأرجُحَه وجاء إلى الأردن في عام الهزيمة نفسه، وشَهِدَ نهوضَ الثورة الفلسطينية المسلّحة، وبدأتْ في حياته مرحلةٌ جديدةٌ اعتنَقَ فيها فكرةَ «العنف الثوري» وانخرط في وعوده الخلاّبة.

«قَوْلُ لا عبر القذف بأجسادنا... قد يُكسبنا الجنّة، لكنّه لن يعيد إلينا فلسطين»

شرابي والعنف الثوري

كان هشام شرابي مرصودًا، منذ بداياته الأولى، للعمل السياسي المباشر. ومع أنّ ما حدث في عاميْ ١٩٤٨ و١٩٤٩ غيّر مجرى حياته تمامًا، وألجأه إلى الرحيل غربًا، إلاّ أنّه لم يُذْعِنْ لهذه المتغيِّرات قطّ، واختار أن يكون مثقفًا من الطراز الغرامشي لا من طراز المثقف الأكاديمي المعزول. وفوق ذلك انحاز إلى عصره وإلى ثقافة عصره من غير أيّ تردّد؛ ففي أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من القرن العشرين كانت أحلامُ الثورة تدغدغ أفئدةَ الشباب في جميع أرجاء العالم، وكانت أفكارُ اليسار الجديد تَقْرع أبوابَ التغيير بقوة، وراحت حركاتُ الشباب والنساء تبشّر بعالمٍ نظيفٍ بلا حروب وغير عنصري وعادلٍ حقّاً، ولَمَعَ في ميادين الفكر والثقافة أعلامٌ كبار شَرَعوا في نقد الرأسمالية وتوحُّشها وهمجيّتها أمثال ڤلهلم رايش وإريك فروم وهربرت ماركوز وغيرهم. وفي هذا الحقل المحتدم بالسجال والنقد، انبرى هشام شرابي إلى الانخراط في هذه المراجعة الفكرية العالمية، ولم ينكفئ إلى مسلَّماته الفكرية الأولى، بل طوَّرها لتصبح أكثرَ حداثةً وأكثرَ ارتباطًا بلغة اليسار الثوري. وكان «العنف الثوري» من قضايا الخلاف بين تيّارات اليسار في العالم، فانحاز شرابي إلى هذا المفهوم ودافَعَ عنه بأسلوب بليغ؛ وفي هذا يقول: «أنا خارج الرؤيا الغاندية لحلّ المشكلات الكبرى. أنا مع الكفاح المسلّح الذي ترتبط فاعليّتُه بالنتائج.» ومن الواضح هنا أنّ شرابي كان مع العنف الثوري الواعي، لا مع العنف الأعمى الذي هو، في حدِّه الأدنى، عملٌ غوغائيّ استعراضيّ لا يؤدِّي إلى أيّ مكاسب، وفي حدِّه الأعلى يصبح مجرّدَ إرهاب.

يقول شرابي: «العنف الثوري كان يعني لديّ مجرّدَ تعبيرٍ عن المحبّة، أيْ محبّةِ الإنسان والأرض والعالم. العنف لديّ كان عنفًا نبيلاً لقهرِ قوى الظلم والاستعباد، كي نبني على أنقاض القهر والاستعباد عالمًا جديدًا تسوده العدالةُ والحريةُ وأخوّةُ الإنسان للإنسان.» لكنّ شرابي عَدّلَ موقفَه قليلاً في ما بعد، ولاسيّما بعد أن تغيّرت الأحوالُ أيما تغيّر في فلسطين، فصار يقول إنّه حيالَ السياسة الأميركية المراوغة في قضية اللاجئين، وحيالَ السياسة الإسرائيلية الإرهابية، يجب قولُ كلمة «لا» رافضة لغطرسة القوة ورافضة للخضوع، «لكنّ قولَ لا عبر القذف بأجسادِنا في مواجهة الدّبابات والآلات البغيضة قد يجعلنا نَكْسب الجنة، إلاّ أنّه لن يعيدَ إلينا حبّةَ ترابٍ من أرض فلسطين.»(2)

والحقّ أنّ هذا الموقف الذي يشير فيه إلى العمليات الانتحارية إنّما هو عودةٌ إلى موقف أنطون سعادة نفسه الذي عَبّر عنه في سنة ١٩٣٧ بقوله: «إنّ الوطنية عاطفة نبيلة. ولكنّ سياسة التضحية يجب أن تكون مخطّطةً تخطيطًا دقيقًا؛ وسَفْكُ الدم ضروريّ متى كان وفاقًا لخطة دفاعيةٍ موزونةٍ، واضحةٌ أهدافُها العملية، ومحسوبةٌ مبرِّراتُها التنفيذية. أمّا سفكُ الدم عن جهلٍ بالنتائج، فنتيجتُه خسارةُ الأرواح وضياعُ الثروة والوقت.»(3)

في أيّ حال، لم يكتفِ هشام شرابي بالكتابة والتحليل والتنظير، بل ساهم، بقوة، في جهدٍ متضافرٍ لخدمة شعبه ووطنه. فأسّسَ في واشنطن سنةَ ١٩٧٧ «الصندوقَ الفلسطيني للثقافة والتنمية الاجتماعية» الذي يُعرف اليومَ باسم «صندوق القدس.» وكان للشهيد خليل الوزير (أبو جهاد) اليدُ الطولى والدورُ الخفيُّ في المساندة والدعم. وهذا الصندوق قَدّمَ الآلافَ من المِنَح الدراسية للطلاب الفلسطينيين من المناطق المحتلّة في سنة ١٩٤٨، وساهم في بناء روضات للأطفال، وتزويدِ المدارس بأجهزة الكومبيوتر والمراجع، فضلاً عن تأسيس النوادي الثقافية والرياضية في

---

١ ـ أنظر: هشام شرابي، **أزمة المثقفين العرب** (بيروت: دار نلسن، ٢٠٠٢).

٢ ـ جريدة **السفير**، ١٩٩٦/٥/١٧.

٣ ـ جريدة **النهضة**، بيروت، تشرين الأول (أكتوبر)، ١٩٣٧.

الجليل والمثلّث. وعندما اندلعت الانتفاضةُ الثانية في سنة ٢٠٠٠ تحوّلَ «الصندوقُ» إلى تأمين المساعدات الطبية والمالية للفلسطينيّين في الضفّة الغربية وقطاع غزة. وخلال هذه الفترة المحتدمة بالآمال والخيبات معًا، كتب هشام شرابي: **الفدائيون الفلسطينيون** (١٩٧٠)، و**المقاومة الفلسطينية في وجه إسرائيل وأميركا** (١٩٧٠)، و**الدبلوماسية والاستراتيجية في وجه الصراع العربي - الصهيوني** (١٩٧٥)، و**نصوص ومقالات في القضية الفلسطينية** (٢٠٠٠)، ولو أمهله الزمانُ قليلاً لكان أنْجَزَ كتابَه: **سبعة أيام: العودة إلى فلسطين**. ولم يَهْجع شرابي قطّ، إلاّ حينما أرغمتْه ضجعةُ الموت على الصمت والرحيل، فـأسّس في سنة ١٩٩١، ضمن إطار صندوق القدس، «المركزَ الفلسطينيّ للأبحاث السياسية» في واشنطن العاصمة. وعلاوةً على ذلك أنْجَزَ، خلال ٣٠ عامًا، نحو ثمانية كتب أخرى كان لمعظمها الأثرُ المدوّي في الثقافة العربية المعاصرة وهي: **المثقفون العرب والغرب** (١٩٧١)، **مقدّمات لدراسة المجتمع العربي** (١٩٧٥)، **الجمر والرماد** (١٩٧٨)، **البنية البطريركية** (١٩٨٦)، **النظام الأبوي** (١٩٨٨)، **النقد الحضاري للمجتمع العربي** (١٩٩١)، **صور الماضي** (١٩٩٣)، **أزمة المثقفين العرب** (٢٠٠٢).

كان شرابي شديد التحفُّظ عن اتفاق أوسلو

هشام شرابي ومنظمة التحرير الفلسطينية

مع أنّ هشام شرابي كان على صلة مستمرة بقادة العمل الفلسطيني أمثال خليل الوزير وجورج حبش، وبرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، إلاّ أنّ هذه الصلة لم تمنعْه من نقد السياسات الفلسطينية كلِّها، ولاسيّما سياسة منظّمة التحرير بالتحديد. وفي هذا المجال كان شديدَ التحفُّظ عن اتفاق أوسلو (١٣/٩/١٩٩٣)، وطالما رَدّدَ أنّ اتفاقَي القاهرة وطابا اللذيْن أعقبا اتفاقَ أوسلو هما مجرّدُ عمليةٍ مخادعةٍ ساخرةٍ هدفُها انتزاعُ استسلام مذلٍّ للشعب الفلسطيني.[1] وكان يعتقد أنّ توقيع اتفاقات المرحلة الأخيرة، بحسب اتفاق أوسلو، سيكون في منزلة الإعلان عن أنّ الصراع العربي - الإسرائيلي قد انتهى، وأنّ المشروع الصهيوني قد حقّق أهدافه.[2] ولمواجهة هذه المخاطر دعا إلى بناء مؤسسة فلسطينية تَجْمع الفلسطينيين أينما وُجدوا، وتَنْبثق من مؤتمر فلسطيني عامّ تكون غايتُه تحديدَ الأهداف الممكنة، ثم اتخاذَ الإجراءات العملية اللازمة لبناء هذه المؤسسة العمومية التي تمثِّل الشعبَ الفلسطيني في الشتات.[3] ومنذ المراحل المبكّرة لقيام السلطة الفلسطينية كان يقول: «مَنْ عندَه بصيرةٌ لا يحتاج إلى مِجْهرٍ ليرى أنّ القضية الفلسطينية اليوم ليست في مرحلة الحلّ العادل والسلام الدائم، بل هي على عتبة التّصفية النهائية، وأنّ المشرق العربي ليس على أبواب صلح ورخاء، بل على وشك أن يتحوّل إلى منطقة نفوذ أميركي - إسرائيلي وهدف لاستعمار من نوع جديد.»[4]

ومثلما رأى أنّ القضية الفلسطينية ليست في مرحلة الحل العادل، رأى أنّ تحرُّرَ الشعب الفلسطيني ليس وشيكًا أيضًا، بل «إنّ تحرُّر الشعب الفلسطيني لا يُمْكن أن يتمّ إلاّ من خلال تغييرٍ جذري في النظام العربي القائم. والتحرُّر العربي لا يُمْكن أن يتحقّق إلاّ بالوقوف في وجه الولايات المتحدة وإسرائيل ونظامها الجديد في الشرق الأوسط.»[5]

شرابي والدولة الثنائية القومية

إنّ موقف شرابي من الحركة الصهيونية وإسرائيل يُمْكن استنباطُه بسهولة؛ فهو، بسبب خلفيّته الإيديولوجية، يَرْفض رفضًا مطلقًا أيَّ وجود صهيوني في فلسطين، ولا يَعْترف بأيّ شكل من أشكال الشرعية التي اكتسبتْها إسرائيل. لكنّ التحوّلات السياسية الكبيرة التي عَصَفَتْ بالمنطقة العربية، ولاسيّما بعد هزيمة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧، جعلته يميل إلى مفهوم المصالحة التاريخية في فلسطين.

---

١ - **السفير**، ١٧/٥/١٩٩٦.

٢ - **السفير**، ٢٩/٣/١٩٩٦.

٣ - في سنة ١٩٩٦ بادر هشام شرابي وكلوفيس مقصود ونصير عاروري وسميح فرسون وهالة مقصود وغادة الكرمي وآخرون إلى تأسيس «اللجنة التحضيرية الموقّتة لمؤتمر العودة وتقرير المصير.» وعقدتْ هذه اللجنةُ اجتماعًا تمهيديًا لها في نيسان (أبريل) ١٩٩٦، وجاء بعضُ أعضائها إلى لبنان للتشاور في هذا الأمر. إلاّ أنّ ضيقَ أفقِ بعض المنظمات الفلسطينية وبعضِ الشخصيات الفلسطينية أفشلَ هذا المشروع وحال دون السير فيه إلى الأمام.

٤ - ٥ - **السفير**، ١٢/٧/١٩٩٦.

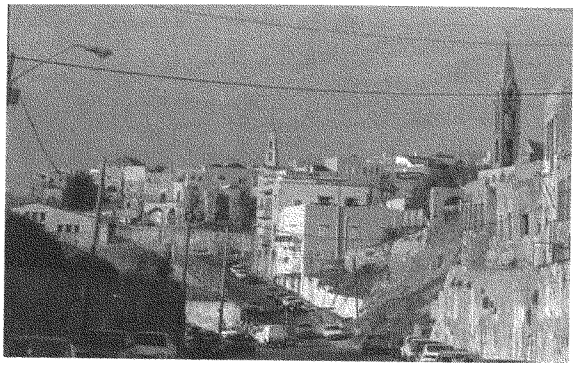

بين ٢٥ أيار و١ حزيران ٢٠٠١ رأى هشام شرابي يافا بعد ٥٤ عامًا!

ولعلّه قَبِل هذه الفكرة، ولو موقّتًا، لأنّه رأى أنّ «الحلّ هو تأسيسُ مصالحةٍ بين الفلسطينيين والإسرائيليين تؤدّي إلى انسحاب إسرائيل من الضفة وغزة وإقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل... وهذه تضحية هائلة من الفلسطينيين لأنّها تعني تنازلاً هائلاً عن حقّهم في فلسطين، واكتفاءً بالحدّ الأدنى منها.»[1] ولكنْ، بعد انفجار الأوضاع في فلسطين جرّاء الانتفاضة في سنة ٢٠٠٠، رأى «أنّ الحلّ القائم على دولتيْن لم يَعُدْ ممكنًا. فمن المستحيل إقامةُ دولة فلسطينية فعلية في الضفة الغربية وقطاع غزّة.»[2] وطالما رَدّدَ أنّ الدولة الفلسطينية إذا أُعلنتْ بالشروط الراهنة فهي لن تكون إلاّ separation، أيْ عَزْلَ الفلسطينيين عن اليهود مثلَ عزلِ المستوطنين الأوروبيين للهنود الحمر في أميركا، ومثلَ عزلِ المستوطنين الهولنديين البيض للسكان السود في جنوب إفريقيا.[3] وحيالَ هذا الاضطراب كان يرى أنّ هناك دولةً واحدةً تَنْبثق بالتدريج بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، غير أنّ إسرائيل أغلقتِ الخياراتِ السياسيةَ حتى على نفسها، تمامًا مثل شخصٍ أَقْفل غرفتَه ورمى المفتاحَ من الشباك.[4] لهذا فـ «نحن سائرون إلى دولة على غرار جنوب إفريقيا في الأربعينات والخمسينات، أيْ فصل إثنيّ قائم على العنصرية؛ أيْ إلى دولة ثنائية القومية، لكنْ لا حقوق متساوية لإحدى القوميتين.»[5] وعلى الرغم من تشاؤم العقل، إلاّ أنّ تفاؤل الإرادة كان يَدْفعه إلى التأكيد على «أنّ الشعب الفلسطيني سيتمكّن في السنين المقبلة من الوقوف في وجه إسرائيل، وتغييرِ موازين القوى في المنطقة كلّها. وهذا الأمر مرهون بتنفيذ عدة أمور أهمُّها: توفيرُ الدعم المادي للشعب الفلسطيني، وتأمينُ الحماية الدولية له، والقيامُ بالإصلاح الداخلي، وتأسيسُ نظام سياسي حديث، وبناءُ آليّات فاعلة لقيام دولة ديموقراطية.»[6] وهو مرهون أيضًا بسعي الفلسطينيين إلى «إقامة جبهة وطنية موحَّدة للشعب الفلسطيني؛ وإقامة هيئةٍ تَجْمع الشتاتَ الفلسطيني في العالم العربي وفي أوروبا وأميركا ليكون للشتات نصيبُه في القرار الوطني؛ وإعادةِ تكوين المجلس الوطني الفلسطيني من خلال انتخابات ديموقراطية تجري في المخيّمات ومناطق الهجرة.»[7]

من نيتشه إلى ماركس

بدأ هشام شرابي ليبراليًا مأخوذًا بكتابات نيتشه. وفي سنة ١٩٦٧ أعاد قراءةَ كارل ماركس بعيون جديدة، فاكتشف كم أنّ الثقافة المسيطرة في الولايات المتحدة قادرةٌ على إخضاع الفرد لقيمها وتضليله في أعمق المستويات. وأدرك أنّ الخطوة الأولى في التحرّر هي التحرّر الذاتي، وأنّ بداية ذلك تَكْمن في التخلُّص من عبودية الفكر المسيطر. وهكذا بدأ عالمٌ مختلف يتكشّف أمامه؛ عالمٌ فكريٌّ فسيحٌ يمتدّ من ماركس إلى ماركوز. وبهذا المعنى اكتسب مفهومُ الحرية لديه معنى جديدًا. والحرية كانت دائمًا قضيّته الأولى، أكانت حريةَ الفرد أمْ حريةَ الجماعة أمْ حريةَ الأوطان. والديموقراطية نفسها، كشكل من أشكال الحرية الاجتماعية، تحتاج، في التأسيس، إلى تغيير اجتماعي؛ ومفتاحُ ذلك التغيير هو **حرية المرأة**.

في رسالة إلى أدونيس بعد صدور قصيدة «دليلة» في سنة ١٩٥٠ يقول شرابي: «إنّ شمشون اليهودي قد تغلّب علينا نحن السوريين بفكّ حمار (سِفْر القضاة: ١٥: ١٦)، وأَخْرَجَنا من فلسطين لا لقوةٍ سحريةٍ فيه هذه المرةَ، بل لشللٍ داخليٍّ فينا. ولكنّ شمشون المنتصر الآن سينخذل أمامنا مرةً أخرى، وسنبرهن للعالم أنّ شمشون اليهودي خرافةٌ ضالّةٌ مجرمة. وقد كان لاعتمادِكَ على صورة دليلة، رمزًا لتضحية الفتاة السورية التي تجد نفسَها أمام واجبها نحو شعبها وحُبّها، عاملٌ قوي في إثارة مكان المرأة في نظرتنا الاجتماعية وإظهار إيمان الحركة بنفسية الفتاة السورية ودورها الأساسي في البعث الحديث.»[8] وللمقارنة فقط، فإنّ سعيد عقل حينما أراد أن يتكئ على التاريخ القديم لم يجد غيرَ «بنت يفتاح»

---

١ ـ حوار مع هشام شرابي، أجراه صقر أبو فخر، ونُشر في: هشام شرابي، **أزمة المثقفين العرب** (بيروت: دار نلسن، ٢٠٠٢).

٢ ـ **السفير**، ٢٠٠٢/١١/١١.

٣ ـ **السفير**، ١٩٩٩/٢/٩.

٤ ـ ٥ ـ صقر أبو فخر، «عائد من فلسطين،» **السفير**، ٢٠٠١/٦/٥.

٦ ـ **السفير**، ٢٠٠١/٥/١.

٧ ـ **السفير**، ٢٠٠٢/٨/٩.

٨ ـ **السفير**، ١٩٩٨/٧/٤.

اليهودية ليستخدمَها في مسرحيّته الشعرية المشهورة.

تأسيسًا على هذا الخطاب، ظلّ هشام شرابي على إيمانه بأنّ «المستقبل ستبنيه فئاتُ الجيل الطالع المهمّشة، من شبّانٍ وشاباتٍ وعمّالٍ وطلّابٍ ومثقفين ـ وهذه هي اليوم القوى الوحيدة القادرة على تحدّي السلطة الأبوية والإطاحة بنظامها الذكوري. ومن شروط بناء المستقبل استرجاعُ حقوق المرأة وحقوق الإنسان، وبناء مجتمع حديث لا بواسطة العنف والتدمير، بل بالأساليب الديموقراطية والقانونية والتنظيم العقلاني.»[1] وظلّ متفائلاً جداً بأنّ العالم العربي سيتغيّر خلال عشرين سنة لأنّ «التحوّلات الفكرية والاجتماعية والثقافية الجارية ستُرْغم النُّظُمَ العربية الراكدة على التزحزح، وسيَنْجم عن ذلك تفاعلاتٌ لا يُمْكن التكهُّنُ بها. أما الفئات الاجتماعية التي سيكون لها شأن في هذه التفاعلات فهي: المثقفون والمرأة.»[3]

عائد إلى فلسطين

بين الخامس والعشرين من مايو (أيار) والأول من يونيو (حزيران) ٢٠٠١، أَمْضى هشام شرابي في فلسطين سبعةَ أيام متواصلة جال، في أثنائها، في شعاب البلاد الّتي كان غادرَها قبل أربعة وخمسين عامًا. سبعة أيام كأيّام الخليقة؛ لم يهدأ قطّ: فنداءُ الأرض كان يحرّك مكامنَ الشوق في ضلوعه. تسلّلَ بسيارات الإسعاف إلى مواقع المواجهة اليومية مع المحتلّ الإسرائيلي، وشاهَدَ بأُمّ العين كيف تتسرّب الأرضُ من أيدي أبنائها. وأخيرًا رأى يافا. جاءها قاصدًا هواءَها وبحرَها وأنسامَ الشجر في شارع جمال باشا والعجمي. وفي ثنايا تلك المدينةِ امتدّ شريطٌ من الذكريات لا ينتهي، وودَّعَ صديقَه إبراهيم أبو لغد الوداعَ الأخيرَ. كان وداعًا مفعمًا بالرموز والإشارات: ها إنّ المهاجِر الفلسطيني يعود إلى منبته الأول حتى لو مات طريدَ المنافي.

عاد هشام شرابي إلى فلسطين أولَ مرة في سنة ١٩٩٣ مع غروبِ شمسِ الانتفاضة الأولى. ثم ذهب إليها مرةً ثانية في أيار (مايو) ٢٠٠١ حينما كانت الانتفاضةُ الثانيةُ في ذروة احتدامها. وعاد من فلسطين مفعمًا بالأمل؛ فقد رأى بأمّ العين كيف يحتفي الناسُ بالثقافة في الوقت الذي يقاتلون فيه ويشيّعون جنائزَ أبنائهم. وبالعين الثاقبة لاحَظَ أنّ الخوف من الجندي الإسرائيلي اندثر نهائيّاً، وحَلّ محلَّه الاحتقارُ والازدراءُ. وبعد هذه العودة من الديار الفلسطينية انهَمك في الدعوة إلى فكرة الحماية الدولية للفلسطينيين القابعين تحت الاحتلال الإسرائيلي. ولعلّ زيارتَه فلسطينَ في سنة ٢٠٠١ زوّدتْه بمعيارٍ سياسيٍ جديد، فرأى أنّ الفلسطينيين «هم الآن في مرحلة إثبات الوجود وترسيخه، أماّ التحرير فهو مرحلة لاحقة.» ومع ذلك ظلّ يردّد: «سننتصر. لكنّ الانتصار ليس قريبًا... فالانتصارُ مرهونٌ بما سيَحْدث في العالم العربي خلال العشرين سنة المقبلة... تمامًا مثل الصينُ وهونغ كونغ. فلو كانت الصين متفسخةً وضعيفةً ومتهتكةً، لبقيتْ هونغ كونغ خارجها. إنّ إسرائيل تمثّل هونغ كونغ في بلادنا؛ فهي التي تحافظ على الستاتيكو كي يبقى الواقعُ العربيُّ على حاله من التخلّف والتشرذم والمنازعات. فإذا أمكن كسرُ هذا الواقع، فعند ذلك سنكسر الهيمنةَ الإسرائيليةَ ونضع حداً للاستعمار الأميركي ـ وهو آخرُ استعمارٍ في العالم كلِّه.»[2]

❖ ❖ ❖

كان هشام شرابي يردّد: «الحاضر كابوس والماضي هو الحقيقة.» وقد حال كابوسُ الحاضر دون عودته إلى الماضي الخلّاب في يافا، ودون أن تنقفَ الحريةَ في فلسطين. ومع أنّ غربة هشام شرابي في الولايات المتحدة الأميركية امتدّتْ زمنًا طويلاً، غير أنّه آثر أن يعود، في سنواته الأخيرة، إلى لبنان ليفني أواخر أيامه في بيروت ويُدفنَ قريبًا من فلسطين، في البلد الذي تمنّعتْ سلطاتُه عن منحه الإقامةَ الدائمةَ في سنة ١٩٧٤.

رحل هشام شرابي بعيدًا عن يافا. ويكاد الواحدُ منّا لا يمتلك من الكلمات في هذا المقام إلاّ ما أنشده كمال ناصر فوق قبر غسان كنفاني:

كَفِّنوهُ بالعزِّ من أمجادِهِ   وادفنوهُ مشرّدًا في بلادِه!

بيروت

صقر أبو فخر

سكرتير تحرير **مجلة الدراسات الفلسطينية**، وكاتب في جريدة **السفير** اللبنانية.

---

١ ـ أنظر: صقر أبو فخر في حوار مع شرابي، **السفير**، ٢٠٠١/٦/٥.

٢ ـ جان دايه، **سعادة وهشام شرابي**، مصدر مذكور.

٣ ـ أنظر: صقر أبو فخر في حوار مع شرابي، **السفير**، ٢٠٠١/٦/٥.